

الشعر العذري في ضوء القراءة النفسية - يائية قيس بن الملوّح أنموذجا -

الأستاذ: حاكمي لخضر
جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة
معهد الأدب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
البريد الإلكتروني:
Lakhdarhakmi@yahoo.fr

(ولما كانت طبيعة هذه النزعة إنسانيةً بحكم تسلطها على جوانية الإنسان، وذلك لمحاولة حلّ بعض العقد المتعصّة في طوايا نفسه، فإنّها امتدّت بمجالات بحوثها إلى ما يصدر عن خيال الإنسان من آداب، وفنون. وما ذلك إلّا لأنّ المبدع إنسانٌ قبل كلّ شيءٍ، وما الإبداع الذي يُنشئه إلّا نتاج الخيال، وما خياله، في حقيقة الأمر، إلّا إفرازٌ للأوعيّة نفسه منذ صباه إلى حيث هو من العمر.)
- د/ عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد ص 140 -

توطئة:

- لا جرم أنّ الشعر العذريّ أضحى منذ أمدٍ الكاشفَ لأرْمِيَّةِ النفس البشرية في تقلّباتها الوجدانية ضمن ما صار يُعرف آنذاك بالحبّ العذريّ؛ وهو حبٌّ سما عن المواصفات الغريزية، لما استجدّه من رؤيةٍ كونيةٍ قلبت بعضاً ممّا حاكاه امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم، والأعشى قيس... وغيرهم من شعراء الجاهلية.
ولا ريب من أنّ نوستالجيا الشاعر العذري انعكست على البناء اللغوي الصّرف، مثلما انعكست على التركيبة النفسية، ومردُّ كلّ ذلك إلى التمزّق النفسي الذي لحق بروح العذري في فترة حكم بني أمية.

وعلى هذا الأساس، أردنا أن نستقصي بقدرٍ من التيسير بؤادر الرؤية النفسية العذرية - ضمن مسارها المعقدة و المتماهة في الوقت نفسه - وذلك عن طريق مساءلة النص الشعري العذري مساءلةً تستهدي في تحليلها ببعض الآليات النفسية بُغية كشف الحجب - ولو نسبيًا - عما بات يُعرف اليوم باسم: العقد والأزمات النفسية.

ولذلك سنلجأ في قراءتنا إلى اعتناق الدّاخل لكشف مسالك الخارج، أو بالأحرى قل: إنَّها قراءة استبطائية تتعالق بمقررات المدرسة النفسية في تفسيراتها، وتكشف - في الآن ذاته - عن حيثيات السلوك العذري انطلاقاً من بعض الآليات النفسية، والتي تُترجم سلوكيات غير معتادة في لحظات من الزمن، وما زمنية الحب العذري إلاّ واحدة من هاتيك الأزمنة التي مسّها انشطارٌ غير مألوفٍ في طابع الحب الذي ألفه العربي آنذاك.

ولعلّ ذاك أيضاً هو العشق اللامنتظر في تلك الحقبة، باعتباره - فيما يرى أصحابه - تهذيب النفس من بواطن المُجون الذي أحلّ بصفائه ردياً من الزمن.

أولاً: مصطلح (الحب والعشق) بين التّصوّرين: الغربي والعربي

- لو رجعنا القهقري إلى من أدلوا بدلوهم في باب الحبّ وضروبه، لألمعنا ابن منظور في معجمه اللسان يورد تعريفاً خاصاً له بقوله: "سئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: أيهما أحمد؟ قال: الحب، لأنّ العشق فيه إفراط، ويسمى العاشق عاشقاً لأنّه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشيقة إذا قُطفت"¹.

ونلمع أيضاً الإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي يشير إليه ضمن كتابه (طوق الحمامة) بقوله: "الحب - أعزك الله - أوّل هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تُدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة"².

وقد أفاضَ النَّاسُ فِي الحديثِ عَنِ العِشْقِ وَ شُؤْنِهِ*، فَقَالَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ اسْتَرَاقُ الرُّوحِ لِلرُّوحِ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ مِنْ صَنْعِ الْخَالِقِ، وَإِنَّهُ - مِثْلَمَا رَأَى ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي مُؤَلَّفِهِ السَّابِقِ: "اتِّصَالُ بَيْنِ أَجْزَاءِ النُّفُوسِ الْمَقْسُومَةِ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ فِي أَصُولِ عُنْصُرِهَا الرَّفِيعِ، لِأَعْلَى مَا حَكَاهُ " مُحَمَّدٌ بْنُ دَاوُدَ " - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْفَلَسَفَةِ: الْأَرْوَاحُ أَطْرُ مَقْسُومَةٌ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ مَنَاسِبَةٍ قَوَامِهَا فِي مَقَرِّ عَالَمِهَا الْعُلُويِّ، وَمَجَاوِرَتِهَا فِي هَيْئَةٍ تَرْكِيبِهَا"³.

وَلِذَلِكَ، لَا نَعُجِبُ إِنْ نَحْنُ عَثَرْنَا عَلَى تَنْعِيَتَاتٍ تَبَادُرَ بِالْقَوْلِ: إِنَّ الْعِشْقَ قَرِيبٌ مِنَ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ طَابِعَ الْقِدَاسَةِ وَ الطَّهَارَةِ وَالْعِظَمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تُعَلِّي مِنْ شَأْنِهِ فِي كَوْنِهِ قِيَمَةً أَكْثَرَ مِنْ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَا دَامَ يَسْتَجِيبُ لِلرُّوحِ فِي مَنَاجِلَتِهَا، وَأَنَّ هَاتِهِ الْأَخِيرَةَ (الْمَنَاجَاةُ الدَّاخِلِيَّةُ) مُطْلَبٌ سَمَاوِيٌّ، يَنَاضِي كُلَّ النَّأْيِ عَنِ الْجَانِبِ الْحَسِّيِّ الْخَلِيعِ الَّذِي اسْتَهْوَى أَغْلَبَ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ.

وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذِهِ الْمِيزَاتِ بَرَزَتْ بِشَكْلِ لَافِتٍ لِلنَّظَرِ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ، وَبِالتَّحْدِيدِ لَدَى شُعْرَاءِ بَنِي عَذْرَةَ، وَهُوَ أَمْرٌ لَهُ مَا يَبْرُرُهُ فِي الْفَضَاءِ الثَّقَافِيِّ وَالِدِّينِيِّ آنَذَاكَ؛ وَلِذَلِكَ بَدَتْ طُقُوسُ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعِشْقِ لَا تَفْتَأُ تَتَلَدَّدُ بِالْفِرَاقِ وَأَلْوَانِهِ، وَتَنْشُدُ الْوَحْدَةَ وَتَحْجُذُ الْمَوْتَ بِدَلِّ الْحَيَاةِ، وَمِنْهُ يَكُونُ الْحَبُّ الْعَذْرِي قَدْ " أَصْلَ لِلْمَفْهُومِ الرُّوحَانِيِّ لِمَاهِيَةِ الْعِشْقِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا أَبْعَادًا رُوحِيَّةً جَدِيدَةً، أَصْبَحَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَاطِقَاتٍ أُسَاسِيَّةً لِحُرْكَةِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ، لِذَا نَرَى أَنَّ الْعَذْرِيَّةَ فِي مَنَاطِقَاتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ ضَرْبٌ مِنَ السُّكْرِ الصُّوفِيِّ، وَإِرَاهَاصَاتٍ أُولَيَّةٍ لِلْوَجْهِ الْعَرَفَانِيِّ، إِذِ الصُّوفِيَّةُ بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ انْتَهَتْ الْعَذْرِيَّةُ"⁴.

إِنَّ تَبْرِيرَ هَذَا الْقَوْلِ نَرَاهُ كَائِنًا بِقُوَّةٍ فِي كِتَابِ الشَّيْخِ الْجِيلِيِّ الْمَوْسُومِ بِـ: (الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوَاخِرِ وَالْأَوَائِلِ)؛ وَالَّذِي أَبَانَ مُؤَلَّفُهُ فِيهِ عَنْ مَرَاتِبِ الْحَبِّ

الإلهي، ورأى أَنَّ العِشْقَ آخرَ هاتِهِ المراتبِ، وفيهِ يتخلَّصُ الإنسانُ مِن طبيعته الحيوانية، ويسمو إلى العالمِ الرُّوحي النقي.

ثمَّ إنَّ العاشقَ- على حدِّ قول الجيلي- " يرى معشوقه فلا يعرفه ولا يصير إليه كما رُوي عن مجنون ليلَى أنَّها مرَّت به ذات يومٍ فدعته إليها لتحديثه فقال لها : دعيني فإنني مشغولٌ بليلى عنك وهذا آخر مقامات الوصول والقرب؛ وفيه يُنكر العارفُ معروَفه، فلا يبقى عارفٌ ولا معروفٌ ولا عاشقٌ ولا معشوقٌ ولا يبقى إلَّا العِشْقُ وحده، والعِشْقُ هو الذاتُ المحضُ الصَّرفُ، الذي لا يدخل تحت رسمٍ ولا نعتٍ ولا وصفٍ، فهو أعني العِشْقُ في ابتداء ظهوره يُفني العاشقَ حتَّى لا يبقى له اسمٌ ولا رسمٌ ولا نعتٌ ولا وصفٌ، فإذا امتحقَّ العاشقُ وانطمس، أخذَ العِشْقُ في فناءِ المعشوقِ والعاشقِ، فلا يزالُ يُفني منه الاسمَ ثمَّ الوصفَ ثمَّ الذاتَ ... فحينئذٍ يظهر العاشقُ بالصُّورتين، ويتَّصفُ بالصفَّتين، فيُسمَّى بالعاشقِ ويُسمَّى بالمعشوق⁵.

وقد أطل الجيلي الحديثَ عن النَّفس الإنسانية ومراتب الحبِّ الإلهي فيها، فجعل العِشْقَ أهمَّ هذه المراتبِ، باعتبار أنَّ تلك المراتبِ والمقامات تنشأ تبعاً حتَّى توصلَ إلى مقام العِشْقِ.

وعلى هذا الأساس، فلو حاولنا تبينَ المفارقات الفكرية لدلالة العِشْقِ بين التصوُّرين: العربي والغربي، لوجدنا أنَّ مسار الأوَّل يتنزَّل من فطرةٍ سليمةٍ صافية، وهي فطرةُ الله التي فطر النَّاسَ عليها، والتي لا تعباً بالماديات، بل تسمو إلى الرُّوحيات، بما تركه في الفرد من حياءٍ وحشمةٍ كفيلين بتقوم العلاقات الاجتماعية فيما بين الأفراد؛ ولذلك انعكست تعاليم الدين الإسلامي في عهد الخلافة الأموية على جميع الأصعدة، بما في ذلك الرُّوحية منها، ممَّا ولَّد انطباعاً غير مباشر بالعفة وقمع الشهوات، فبدا واضحاً أنَّ الخوفَ من الذَّنْبِ صار يشكِّل في

أحيان كثيرة " شكلاً لاشعورياً يتبدى بصورة أساسية في التسليم المسبق بالعفاف العشقي... إنَّ تشبث العذريين بمقولة العفة ليست إلاّ التّاج الحتميّ للخوف من السقوط في الذنب، بل هي الدرع الواقي الحاجز بين الفرد والإثم"⁶

إنّ المتبصّر بمهية الحب في التراث الغربي، يلقي لا محالة مفارقات جوهرية في المفهوم مع نظيره العربي، ذلك أنّ الحبّ على عهد الإغريق " ليس وحده الحب، ولكن اسمه يُخفي في ثناياه أسماء أخرى متعدّدة، إنّهُ الموت والقوّة التي لا تحول ولا تزول، إنّهُ الشهوة الخض، الجنون العاصف والنواح"⁷. ولكن، هل فعلاً أنّ الحبّ هو في الأصل الجوهري انعكاس مّيالٍ إلى الإفراغ الليبيدي على حدّ تفسير مدرسة التحليل النفسي؟.

يبدو أنّ المظاهر التي كانت تبدو في الملمح العربي طاهرةً نقيّة، قد شوّهت صورتها في المنظور الغربي، وتبريرهم في ذلك يكمن في أنّ ما يقع من ردّ فعل المحيّن إنّما هو حبّ مقموعٌ، يبيّن نظريته على أسس ماديّة بحتة " وما القمع الذي سلّطته الحضارات على العشق إلاّ حفاظاً على طاقة الليبيدو حتّى تُستثمر في البناء الحضاري للأمة عبر مشروعها الإنتاجي"⁸، لذلك يرى المتطلّع في تاريخ الدولة الأمويّة أنّ العشق قد انتشر في أيامها، وبات في منظورها الوسيلة الأساس لدراء الفرد عن المساس بالجانب السياسي، والذي قد ينسيه لزمانٍ قد يطول نقد السّلطة السياسيّة، والتطلّع إلى التّغيير.

يُعَدُّ التّقدّ النفساني من المناهج التّقدّيّة الحديثة التي اتّخذها بعضُ النّقاد العرب، في مقارباتهم للنصوص الشعريّة العذريّة، نظراً للآليات العلميّة التي تستنفذ بواطن الظّاهرة النفسيّة، ومن أولئك النّقاد عباس محمود العقاد والدكتور يوسف اليوسف

**** اللذان ضمنا تحليلهما الشعريّ بعضاً من المبادئ النفسية، التي رآها وسيلةً حصبة في الوصول إلى فضّ دوايب النصّ الشعري العذري؛ وألفينا أيضاً دراسةً حديثة للشعر العذري في نقد النّقد للأستاذ الدكتور محمد بلوحي، موسومة بـ: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث، وكلّها دراسات أخذت جملة من مبادئ التحليل النفسي للتصوّص الإبداعية والتي منها: الوجد العشقي، التّوستالجيا، الكبت، تعطيل الإرادة، الترفان، المازوشية.**

وعلى هذا الأساس أردنا أن نتخذ من هذه العناصر مجالاً لنا في مقاربتنا النّقدية لياثية قيس بن الملوّح.

ثانيّاً: الياثية (دعوني أموت)

- دعوني دعوني قد أطلتكم عذابيا * وأنضجت جِلدي بحرّ المكاويا
- دعوني أمت غمّاً وهمّاً وكُربةً * أيا ويح قلبي من به مثل مايا
- دعوني بغمّي وانهدوا في كلاءة * من الله قد أيقنت أن لست باقيا
- وراءكم إنّي لقيت من الهوى * تباريح أبكت جِدتي وشبايا
- براني شوق لو برضوى لهده * ولو بشير صار رمساً وشافيا
- سقى الله أطلالاً بناحية الحمى * وإن كنّ قد أبدين للناس مايا
- منازل لو مرّت عليها جنازي * لقال الصّدى: يا حاملي انزلا بيا
- فأشهد بالرحمن من كان مؤمناً * ومن كان يرجو الله فهو دعايا
- لحى الله أقواماً يقولون: إننا * وجدنا الهوى في النأي للصبّ شافيا
- فما بال قلبي هده الشوق والهوى * وأنضج حرّ البين مني فؤاديا
- ألا ليت عيني قد رأت من راكم * لعلّي أسلو ساعة من هياميا
- وهيهات أن أسلو من الحزن والهوى * وهذا قميصي من جرى البين باليا
- فقلت: نسيم الرّيح أدّ تحيّي * إليها وما قد حلّ بي ودهانيا
- فأشكره إنّي إلى ذاك شائق * فياليت شعري هل يكون تلاقيا

- معذبي! لولاك ما كنت هائماً * أبيتُ سخين العين حرَّانَ باكيا
- معذبي! قد طال وَجدي وشفني * هواك فيا للنَّاسِ قلَّ عزائيا
- معذبي! أوردتني منهل الردى * وأخلفت ظني واحترمت وصاليا
- خليلي إني قد أرقّت ومنتما * لبرق يمانٍ فاجلسا علّانيا
- خليلي لو كنت الصَّحيح وكنتما * سقيمين لم أفعلْ كفعلكما بيا
- خليلي مدّا لي فراشي وارفعاً * وسادي لعلَّ الثَّوم يُذهبُ مابيا
- خليلي قد حانت وفاتي فاطلبا * لي النَّعشَ والأكفان واستغفرا ليا
- وإن متُّ من داءِ الصَّبابةِ أبلغاً * شبيهةً ضوءِ الشَّمسِ مني سلاميا

ثالثاً: القراءة النَّفسية La lecture psychanalytique

1- بين الاضطراب الدّاخلي والوجع العشقي:

إنَّ المطلَّع على منهج التحليل النَّفسي Psychanalyse في أصوله الغربيَّة يلفي لا محالة إجراءً منهجياً في تقسيم الحياة النَّفسية الإنسانيَّة إلى ثلاثة أقسام وهي: الهو- الأنا- الأنا الأعلى؛ وتعمل هذه الأنظمة الثلاثة على تهيئة الإطار النَّفسي للإنسان وتنظيمه بشكلٍ يجعل من حياته الاجتماعيَّة حياةً متَّزنةً لا اضطراب فيها.

بيد أنَّه قد تقع هزَّة نفسيَّة تجعل من هذه الثلاثة مضطربةً، بحكم عوامل خارجيَّة لا يستطيع لها الشخص ردّاً ولا حتّى تقبُّلاً؛ وقد كان التحليل في بادئ الأمر متعلّقاً بمعالجة الأشخاص المرضى نفسياً غير أنَّه سرعان ما انقلب إلى معالجة نفسيَّة للأدباء من خلال أدبهم، أو ما اصطلح عليه بـ: التحليل النَّفسي للإبداع Psychanalyse des œuvres وهذا مطلع القرن العشرين⁹.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ "أوّل من طوّر إجراء التحليل النَّفسي في معالجة الأمراض النَّفسية فر ويد نفسه ابتداءً من عام 1885م. ولقد كان للاستكشاف الفرويدي آثارٌ خصبةٌ في كثيرٍ من مجالات المعرفة، ولاسيّما في تأويل السلوك الإنساني

اليومي: وفي تأويل طبيعة الإبداع الذي يزعم فرويد وأصحابه أنه يصدر عن صاحبه في حالٍ من اللاوعي...¹⁰، ثم إنَّ هذا الأخير قد يكون نتاجاً لأزماتٍ نفسيةٍ قُبعت في لاشعور الشخص في لحظةٍ من لحظات الطفولة، وهو ما أسماه بعض علماء النفس بـ: عقدة أوديب Le complexe d'oedipe؛ ومن هنا يبدأ عمل هذه النزعة في متابعة العمل الإبداعي للمبدع، ثم الكشف عن هواجسه من خلال مساءلة ألفاظه، وبالتالي إيجاد ملمح متميز يبرز العلاقات الخفية الكائنة بين المؤلف ومؤلفه.¹¹

- حينما نقرأ قصيدة (دعوني أموت) لقيس بن الملوّح "المجنون"***، نلغي لا محالة طابع الأنين والاضطراب الداخلي مترجماً في البيت والبيتين، فعلى سبيل المثال نراه يقول:

- 1- دعوني دعوني قد أطلتم عذايبا وأنضجتم جلدي بحرّ المكاويا
 - 2- دعوني أمت غمّاً وهماً وكربةً أيا ويح قلبي من به مثل مايا
 - 3- دعوني بغميّ وأهدؤا في كلاءة من الله قد أيقنت أن
- لست باقيا¹²

إنَّ القراءة المتبصرةً بألفاظ الأبيات تبيح لنا القول: إنَّ الشاعِرَ عاشَ فترةً من القنوط والوجع النفسين، أمكنه من الاستزادة في هذه الإرسالات الأنينية الغاضبة: (دعوني... دعوني... دعوني). وهي ألفاظ تترك في ذهن القارئ بعض التخمينات التي تُرجعه إلى فترة حكم بني أمية آنذاك، وإلى قصة قيس بليلى ابنة عمّه، وهما حدثان صغيران أحبَّ كلُّ واحدٍ منهما الآخر؛ وقد أورد عدنان زكي درويش في شرحه لديوان قيس بن الملوّح ملحماً ممّا فيه هذا العنوان: (عشق ليلى صغيراً)، ويتضمّن قولاً لأحد الرواة يقول فيه: (قال أبو عمر الشيباني وأبو عبيدة: كان المجنون

يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك، وهما حينئذ صبيان، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يريان مواشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحُجبت عنه، قال: ويدل على ذلك قوله: صوت

صغيرين نرعى البهْم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم¹³

حينما نعود إلى مسألة السياق LE contexte ، الذي كَوَّن الطابع العشقي بين قيس و ليلي - وجعله ينمو بشكلٍ أُردي قيساً إلى مالا تُحمد عقباه من الجنون والخلل - فإننا نلقي دعائم هذا الافتراض ما ثلَّة بشكلٍ قويٍّ في مرحلة الصَّغر، وهي مرحلة تومئ إلى جنينية هذا الحب، في مراحله الأولى، وأن هذه المرحلة هي التي عززت المسار العشقي، وأنتجت نفوساً ممزقة، و أناتٍ نُحسُّ برنينها عبر الأصوات والكلمات و الجمل.

إن هذه المرحلة - التي صارت فيما بعد أسطورة - كانت هي الحقيقة التي ملأت حياة قيس، وجعلته لا يؤمن بالفراق البتة، ولو صار وأن حدث، سيصير هو إلى الفناء والضِّياع؛ وهذا ما أخبرتنا عنه كتب التاريخ الأدبي من مثل: كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني...

ولذلك، وغير بعيد عن ذلك السياق، راح قيسٌ يُنشِذُ أشعاراً يوماً بعد يوم بعيداً عن المدينة و سكَّانها، فخلق بذلك عالماً الخاص، و انزوى بعيداً عن البشر؛ لكن هذا السَّيْلَ استدرجه إلى مدارج الهالكين، وجعله في عداد الأحياء المفقودين، فنراه لذلك يندبُ الزَّمان ويشكو الإخوان ويحبُّ العزلة بقوله:

وأنضجت جلدِي بحرَّ المكاويا

أيا ويح قلبي من به مثل مايا

1-دعوني دعوني قد أطلتم عذايبا

2-دعوني أمت غمًّا وهماً وكربةً

أن لست باقيا

إنَّ الواقع المنقلب على شاكلته، والذي رضع قيسٌ نتيجه في ظلِّ هذا النظام، جعله يبحث عن نظامٍ آخر، غير نظام المدينة، إنَّه النظام الطبيعي الصَّافي، نظام الفطرة الإلهية، وهي في طبيعتها الأولى الأزلّي- أقصد نظام الغابة والحيوانات التي لا زالت تحتضنُ أفرادها، ولا ترضى لهم بالهلاك- ولذلك أورد عدنان زكي درويش- في شرحه لديوان قيس بن الملوّح- ما نصّه: ((خبر نوفل بن مُساحق مع المجنون)). قال نوفل : " قدِمْتُ البادية فسألتُ عنه: ف قيل لي: توحَّشَ وما لنا به عهدٌ ولا ندري إلى أين صار، فخرجت يوماً أتصيّدُ الأروى، ومعِي جماعةٌ من أصحابي، حتّى كنتُ بناحية الحمى، إذا نحنُ بأراكةٍ عظيمةٍ قد بدا منها قطيعٌ من الطّباء، فيها شخصٌ إنسانٍ يُرى من خلل تلك الأراكة، فعجِبَ أصحابي من ذلك، فعرفته وأتيتهُ وعرفتُ أنّه المجنون الذي أُخبرتُ عنه..."¹⁴

ولهذا كان من المنتظر أن تُنتج العذريّة جرّاء تصادم " بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع في نفسيّة العذري. فهذا الوجد العشقي ما هو إلّا انزعاجٌ حاصلٌ في التّشاطِ نتيجة تجنّب الفرد الحصول على اللذة، على اعتبار أنّ الانزعاج يرتبط بزيادة كميّة الاثارة"¹⁵

ومن هنا نخلص إلى أنّ المفارقات كامنة كما أومأنا سلفاً في عدم انتظام محاور النظام التّفنسي الثلاثة بل إنّ هناك تدافعاً قوياً بين العناصر الثلاثة، وتبرير ذلك: أنّ الهو وهو المركز اللاشعوري للفرد والذي يصبو إلى تحقيق اللذة، يصطدم بالواقع الذي هو في الأصل الأنا، ويمثّل المركز الذّاكراتي للفرد، بيد أنّ " استجابة الفرد للنّواهي وموقفه من المحظورات واخارم تثير في نفسه شعوراً غامضاً من الانزياح

والقلق والخوف... ولا يلبث الفرد طويلاً حتى تصبح ذاته ميداناً للصراع الداخلي بين الشعور بالخطيئة وشرائعه إلى اللذة والسعادة¹⁶

لعل من الأسباب النفسية التي جعلت الشاعر يُناور ذاته من أجل حصول اللذة المتقدمة، هي عدم استجابة الآخر لمطلبه الروحي، الذي قوبل بالحيف والصد، وهذا ما ولد لدى قيس شعوراً بالغربة مع الآخر، دفعه إلى ابتغاء الوحدة لأنها في نفسه تعادل المجتمع برمته، فصار يخاطب ذاته المضمومة من المجتمع، ويحاكيها كأنما هي شخصٌ ثانٍ يحاكي قيساً المخبول، أو بعبارة أخرى يحاكي قيساً المظلوم؛ وتلكم إذن عينة من الأحوال الروحية المتمزقة، التي خاض جحيمها الشاعر، فراح ينشد البعاد من الآخر، لأن عدم استلهامه لحاله، هو في الواقع القيسي ظلمٌ فضيع، فجده لذلك يداعب الكلمات مداعبةً تحمل الصرخات القويّات المعبرة عن ذلك الحزن، أو بالأحرى ما أسماه جون بول سارتر في روايته بـ: الحزن العميق¹⁷، نستشف مثل تلك الكلمات في قوله: دعوني، المكررة ثلاث مرّات.

إن هذه الفردانية تنسلخ عن الآخر في لحظة من اللحظات، إنها لحظات عدم الاستيعاب للأنا، وبالتالي يظهر عدم الاستيعاب - في حد ذاته - نوعاً من الجريمة في حق الأشخاص.

أوليس ما نلاحظه الآن عبر أنين الأبيات، يعبر عن غربة الأنا في ظل الآخر، ويسمو بها إلى الأنس في ظل الوحدة؟! بل أليس ما وقع لقيس ينبي عن حالٍ شبيه بما حاكاه لنا جان بول سارتر في روايته: الحزن العميق؟ والتي تجعل الفرد يغرق فيما لا يهواه في مجتمعه، فيصاب بخيبة الواقع وبالانتكاس، فيلجأ حينها إلى الاعتصام بالأنا و تفضيل الكهوف والمغارات -على وحشتها- على المدينة ودفعها؟؟؟.

يتبع...

* - لمزيد من الفائدة في الدراسات التي عرّجت على هذا الجانب، يُنظر: د. نزار بريك هنيدي، في

مَهَبُ الشعر- مقالات ودراسات- منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2003- فمثلاً يقول في الصفحة 51 من هذا الكتاب: « فمن الجدير بالذكر أن لأجدادنا العرب مكانة متفردة في هذا النوع من التأليف، فقد أعطوا العالم عدداً من كتب الحب التي استطاعت اختراق الثقافة الغربية وبقيت تشكل المرجع الرئيس في بابها طوال عصور عديدة، وما زالت تلعب دورها المؤثر الكبير حتى يومنا هذا. وعلى رأس هذه الكتب كتاب (الزهرة) لأبي داود و(طوق الحمامة) لابن حزم، و (الروض العاطر في نزهة الخاطر) للشيخ النفزاوي»

- 1- ابن منظور- لسان العرب، دار إحياء التراث العربي لبنان- د. ت 10/ 251-252
- 2- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألف، تحقيق: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة لبنان، ط جديدة سنة 1972 ص 60.
- 3- المصدر نفسه ص 60.
- 4- الدكتور محمد بلوحي: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث (دراسة في نقد النقد)، مطبعة اتحاد الكتاب العرب- دمشق، سوريا- ط 2000. ص 54.
- 5- الشيخ عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تح: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1997 م، ص 85.
- 6- يوسف اليوسف: الغزل العذري- دراسة في الحب المقموع- دار الحقائق- لبنان ط 2، سنة 1982. ص 36.
- 7- صادق جلال العظم- في الحب والحب العذري، في منشورات عيون المغرب- ط 3 سنة 14، 1983. نقلاً عن د/ محمد بلوحي، المرجع السابق، ص 55.
- 8- بلوحي محمد: المصدر السابق، ص 56.
- تجدر الإشارة إلى أن هذا التذكير وجدناه لدى الدكتور محمد بلوحي في دراسته النقدية الموسومة بـ: الشعر العذري في ضوء النقد الحديث- دراسة في نقد النقد- من ص 57 إلى ص 83..
- 9- ينظر د/ عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد- متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة الجزائر ط 2002 ص 138.
- 10- عبد الملك مرتاض، المرجع السابق، ص 138.
- 11- ينظر: Charles mouron l'inconscient dans l'œuvre et la vie de j. racine. Ophrys. Gap. 1957. نقلاً عن د/ عبد الملك مرتاض، المرجع السابق، ص 141.
- ** يقول يوسف اليوسف- في كتابه: الغزل العذري ص 71- ما نصه: « لم يلقب قيس بن الملوّح بالمجنون إلا لأنه كان أقلّ الشعراء تحملاً لصدمة الحرمان، وأكثرهم حزناً من أجل الخيبة التي مني بها الدافع العشقي، ولعلّ حسّ الحظر في شعره أشدّ عمقاً منه في شعر سواه؛ ويتبدّى هذا الحسّ في الغالب على هيئة حؤول يمنعه من الالتقاء بليلي »
- 12- قيس بن الملوّح: الديوان، قراءة وشرح عدنان زكي درويش، دار صادر- بيروت ط 1994. ص 235.
- 13- قيس بن الملوّح: الديوان، ص 252.
- 14- نفسه، ص 289.

- 15- بلوحي محمد: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث، ص58.
- 16- يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام- دار المعارف مصر الطبعة الثامنة، ص:377.
- 17- جان بول سارتر: الحزن العميق، منشورات دار الآداب، وفي صفحته الأخيرة: (... أمّا في هذا الجزء الثالث (الحزن العميق) فتجد طغيان الجماعة على الفردية. إنّ الفرد هنا يغرق في الجماعة: فحين يسقط المقاتلون في الأسر ينهارون كأفراد فيحسّون أنّهم يصبحون مجانين، ويعاودهم القلق والضيق. إنّهم غارقون في وضع لم يختاروه، ولم يعودوا قادرين على أن يُكسبوه معنى، ولذلك يشعرون بالحزن العميق وبأنّ الموت في أرواحهم (...). ولعلّ أروع لحظة في هذا الجزء هي تلك التي يُطلق فيها ماتييو رصاصاته الأخيرة، فيحسّ بأنه نقي، وبأنّه حرّ... وربما يلاقي في تلك اللحظة الموت المحرّر! إنّ «الحزن العميق» يقدّم حلقة جديدة من فلسفة سارتر المتصلة بالحرية، هذه هي التي حكم على البشر بها، فكان لامفرّ لهم من الاضطلاع بها، رغم اليأس والقلق، والتي تحمل لهم العزاء الوحيد في الحياة)
- لمزيد من التفصيل والاستيعاب تُقرأ رواية (الحزن العميق) لجان بول سارتر الأتفة الذكر